الخَاتِمَة

خُلَاصَةُ السُّورَةِ

قَالَ الشَّيْخُ/ **أَحْمَدُ بْنُ مُصْطَفَى المَرَاغِي** (ت ١٣٧١هـ) في تَفْسِيرِهِ:

"وَخُلَاصَةُ مَا سَلَفَ؛ إِنَّ النَّاسَ جَمِيعًا فِي خُسْرَانٍ إِلَّا مَنِ اتَّصَفُوا بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاء: الإِيمَانِ، وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالتَّوَاصِي بِالحَقِّ، وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ.

فَيَعْمَلُونَ الخَيْرَ، وَيَدْعُونَ إِلَى العَمَلِ بِهِ، وَلَا يُزَحْزِحُهُمْ عَنِ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ مَا يُلَاقُونَهُ مِنْ مَشَقَّةٍ وَبَلَاءٍ.

وَالإِنْسَانُ جَمِيعُهُ خُسْرٌ مَسَاعِيهِ وَضُلٌّ مَنَاهِجُهُ، وَصَرْفُ عُمُرِهِ فِي غَيْرِ مَطَالِبِهِ، فَهُوَ قَدْ جَاءَ إِلَى الأَرْضِ لِيُخَلِّصَ نَفْسَهُ مِنَ الرَّذَائِلِ وَيَتَحَلَّى بِالفَضَائِلِ، حَتَّى إِذَا رَجَعَ إِلَى عَالَمِ الأَرْوَاحِ كَانَ أَقْوَى جَنَاحًا، وَأَمْضَى سِلَاحًا، لَكِنَّهُ حِينَ رَجَعَ إِلَى مَقَرِّهِ فِي عَالَمِ السَّمَوَاتِ بِالمَوْتِ لَمْ يَجِدْ إِلَّا نَقْصًا يُحِيطُ بِهِ، وَجَهْلًا يُرْدِيهِ، فَنَدِمَ؛ إِلَّا طَائِفَةٌ مِنْهُ عَاشُوا فِي الدُّنْيَا مُفَكِّرِينَ، فَآمَنُوا بِأَنْبِيَائِهِمْ وَصَدَّقُوا بِرُسُلِهِمْ، وَأَحَبُّوا بَنِي جِنْسِهِمْ، وَأَحْسَنُوا إِلَى إِخْوَانِهِمْ فَسَاعَدُوهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَصَارُوا مَعَهُمْ مُتَعَاضِدِينَ مُتَعَاوِنِينَ، وَصَبَرُوا عَلَى مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الحَدَثَانِ، وَرُمُوا بِهِ مِنَ البُهْتَانِ، فَهَؤُلَاءِ فِي الدُّنْيَا يَفُوزُونَ بِمَا يُرِيدُونَ، وَفِي الآخِرَةِ بِالنَّعِيمِ يَفْرَحُونَ.

جَعَلَنَا اللهُ فِي زُمْرَةِ أُولَئِكَ العَامِلِينَ الَّذِينَ تَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ."أ.هـ.

وَقَدْ جَعَلَ **ابْنُ القَيِّمِ** مَرَاتِبَ (**جِهَادِ النَّفْسِ**) أَرْبَعًا؛ **فَقَالَ**:(١)

"فَـ(**الْجِهَادُ**) أَرْبَعُ مَرَاتِبَ: جِهَادُ **النَّفْسِ**، وَجِهَادُ **الشَّيْطَانِ**، وَجِهَادُ **الْكُفَّارِ**، وَجِهَادُ **الْمُنَافِقِينَ**.

فَـ(**جِهَادُ النَّفْسِ**) أَرْبَعُ مَرَاتِبَ أَيْضًا:

إِحْدَاهَا: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى تَعَلُّمِ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ الَّذِي لَا فَلَاحَ لَهَا وَلَا سَعَادَةَ فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا إِلَّا بِهِ، وَمَتَى فَاتَهَا عِلْمُهُ شَقِيَتْ فِي الدَّارَيْنِ.

الثَّانِيَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الْعَمَلِ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ، وَإِلَّا فَمُجَرَّدُ الْعِلْمِ بِلَا عَمَلٍ إِنْ لَمْ يَضُرَّهَا لَمْ يَنْفَعْهَا.

الثَّالِثَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَتَعْلِيمِهِ مَنْ لَا يَعْلَمُهُ، وَإِلَّا كَانَ مِنَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْهُدَى وَالْبَيِّنَاتِ، وَلَا يَنْفَعُهُ عِلْمُهُ، وَلَا يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ.

الرَّابِعَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الصَّبْرِ عَلَى مَشَاقِّ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ وَأَذَى الْخَلْقِ، وَيَتَحَمَّلُ ذَلِكَ كُلَّهُ للهِ.

فَإِذَا اسْتَكْمَلَ هَذِهِ الْمَرَاتِبَ الْأَرْبَعَ صَارَ مِنَ **الرَّبَّانِيِّينَ**، فَإِنَّ السَّلَفَ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ الْعَالِمَ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى رَبَّانِيًّا حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ وَيَعْمَلَ بِهِ وَيُعَلِّمَهُ، فَمَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ؛ فَذَاكَ يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ."أ.هـ.

وَهَذِهِ **الْمَرَاتِبُ** -فِي الْحَقِيقَةِ- مَأْخُوذَةٌ مِنَ (**سُورَةِ الْعَصْرِ**):

فَالْمَرْتَبَةُ **الْأُولَى** أَخَذَهَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا**﴾.

وَالْمَرْتَبَةُ **الثَّانِيَةُ** أَخَذَهَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾.

---

(١) فِي كِتَابِهِ "زَاد الْمَعَاد" (٣/ ٩).

وَالمَرْتَبَةُ **الثَّالِثَةُ** أَخَذَهَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾.

وَالمَرْتَبَةُ **الرَّابِعَةُ** أَخَذَهَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾.

❁❁❁❁❁❁

وَقَالَ **ابْنُ القَيِّمِ**:(١) "قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾، قَالَ **الشَّافِعِي** رضي الله عنه: لَو فَكَّرَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي هَذِه السُّورَةِ لَكَفَتْهُمْ.

وَبَيَان ذَلِك أَنَّ **المَرَاتِبَ أَرْبَعَةٌ**، وَبِاسْتِكْمَالِهَا يَحْصُلُ لِلشَّخْصِ غَايَةُ كَمَالِهِ: **إِحْدَاهَا**: مَعْرِفَةُ الحَقِّ. **الثَّانِيَةُ**: عَمَلُهُ بِهِ. **الثَّالِثَةُ**: تَعْلِيمُهُ مَنْ لَا يُحْسِنُهُ. **الرَّابِعَةُ**: صَبْرُهُ عَلَىٰ تَعَلُّمِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ وَتَعْلِيمِهِ.

فَذَكَرَ تَعَالَىٰ المَرَاتِبَ الأَرْبَعَةَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَأَقْسَمَ سُبْحَانَهُ فِي هَذِه السُّورَةِ بِالعَصْرِ إِنَّ كُلَّ أَحَدٍ فِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ؛ وَهُمُ الَّذِينَ عَرَفُوا الحَقَّ وَصَدَّقُوا بِهِ فَهَذِهِ **مَرْتَبَةٌ**. وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَهُمُ الَّذِينَ عَمِلُوا بِمَا عَلِمُوهُ مِنَ الحَقِّ فَهَذِهِ **مَرْتَبَةٌ** أُخْرَىٰ. وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَصَّىٰ بِهِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا تَعْلِيمًا وَإِرْشَادًا فَهَذِهِ **مَرْتَبَةٌ** ثَالِثَةٌ. وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ صَبَرُوا عَلَىٰ الحَقِّ وَوَصَّىٰ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالصَّبْرِ عَلَيْهِ وَالثَّبَاتِ فَهَذِهِ **مَرْتَبَةٌ** رَابِعَةٌ.

وَهَذَا نِهَايَةُ الْكَمَالِ؛ فَإِنَّ الْكَمَالَ أَنْ يَكُونَ الشَّخْصُ كَامِلًا فِي نَفْسِهِ مُكَمِّلًا لِغَيْرِهِ، وَكَمَالُهُ بِإِصْلَاحِ قُوَّتَيْهِ العِلْمِيَّةِ وَالعَمَلِيَّةِ:

فَصَلَاحُ الْقُوَّةِ العِلْمِيَّةِ بِالإِيمَانِ.

---

(١) في كِتَابِهِ "مِفْتَاح دَارِ السَّعَادَة وَمَنْشُور وِلَايَةِ العِلْمِ وَالإِرَادَة" (١/ ٥٦، ٥٧).

وَصَلَاحُ الْقُوَّةِ العَمَلِيَّةِ بِعَمَلِ الصَّالِحَاتِ وَتَكْمِيلِهِ غَيْرِهِ بِتَعْلِيمِهِ إِيَّاهُ وَصَبْرِهِ عَلَيْهِ وَتَوْصِيَتِهِ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

فَهَذِهِ السُّورَةُ عَلَىٰ اخْتِصَارِهَا هِيَ مِنْ أَجْمَعِ سُوَرِ الْقُرْآنِ لِلْخَيْرِ بِحَذَافِيرِهِ، وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ كِتَابَهُ كَافِيًا عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ شَافِيًا مِنْ كُلِّ دَاءٍ هَادِيًا إِلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ."أ.هـ.

❁❁❁❁❁❁

وَأَعَادَ **ابْنُ القَيِّمِ** هَذَا المَعْنَىٰ؛ فَقَالَ:(١)

"وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

فَأَقْسَمَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِالدَّهْرِ الَّذِي هُوَ زَمَنُ الأَعْمَالِ الرَّابِحَةِ وَالخَاسِرَةِ؛ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ فِي خُسْرٍ إِلَّا مَنْ كَمَّلَ قُوَّتَهُ العِلْمِيَّةَ بِالإِيمَانِ بِاللهِ، وَقُوَّتَهُ العَمَلِيَّةَ بِالعَمَلِ بِطَاعَتِهِ. فَهَذَا كَمَالُهُ فِي نَفْسِهِ، ثُمَّ كَمَّلَ غَيْرَهُ بِوَصِيَّتِهِ لَهُ بِذَلِكَ، وَأَمْرِهِ إِيَّاهُ بِهِ، وَبِمِلَاكِ ذَلِكَ؛ وَهُوَ الصَّبْرُ.

فَكَمَّلَ نَفْسَهُ بِالعِلْمِ النَّافِعِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، وَكَمَّلَ غَيْرَهُ بِتَعْلِيمِهِ إِيَّاهُ ذَلِكَ، وَوَصِيَّتِهِ لَهُ بِالصَّبْرِ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ **الشَّافِعِيّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَو فَكَّرَ النَّاسُ فِي سُورَةِ وَالعَصْرِ؛ لَكَفَتْهُمْ.

وَهَذَا المَعْنَىٰ فِي القُرْآنِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ: يُخْبِرُ سُبْحَانَهُ أَنَّ أَهْلَ السَّعَادَةِ هُمُ الَّذِينَ عَرَفُوا الحَقَّ وَاتَّبَعُوهُ، وَأَهْلَ الشَّقَاوَةِ هُمُ الَّذِينَ جَهِلُوا الحَقَّ وَضَلُّوا عَنْهُ، أَوْ عَلِمُوهُ وَخَالَفُوهُ وَاتَّبَعُوا غَيْرَهُ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ هَاتَيْنِ القُوَّتَيْنِ لَا تَتَعَطَّلَانِ فِي القَلْبِ، بَلْ إِنِ اسْتَعْمَلَ قُوَّتَهُ العِلْمِيَّةَ فِي مَعْرِفَةِ الحَقِّ وَإِدْرَاكِهِ، وَإِلَّا اسْتَعْمَلَهَا فِي مَعْرِفَةِ مَا يَلِيقُ بِهِ وَيُنَاسِبُهُ مِنَ البَاطِلِ.

---

(١) فِي كِتَابِهِ "إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ مِنْ مَصَايِدِ الشَّيْطَانِ" (١/ ٢٥).

وَإِنِ اسْتَعْمَلَ قُوَّتَهُ الإِرَادِيَّةَ العَمَلِيَّةَ فِيْ العَمَلِ بِهِ، وَإِلَّا اسْتَعْمَلَهَا فِيْ ضِدِّهِ، فَالإِنْسَانُ حَارِثٌ هَمَّامٌ بِالطَّبْعِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَصْدَقُ الأَسْمَاءِ: حَارِثٌ وَهَمَّامٌ**».

فَالحَارِثُ الكَاسِبُ العَامِلُ، وَالهَمَّامُ المُرِيدُ، فَإِنَّ النَّفْسَ مُتَحَرِّكَةٌ بِالإِرَادَةِ. وَحَرَكَتُهَا الإِرَادِيَّةُ لَـهَا مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهَا، وَالإِرَادَةُ تَسْتَلْزِمُ مُرَادًا يَكُونُ مُتَصَوَّرًا لَـهَا، مُتَمَيِّزًا عِنْدَهَا، فَإِنْ لَمْ تَتَصَوَّرِ الحَقَّ وَتَطْلُبْهُ وَتُرِيدْهُ تَصَوَّرَتِ البَاطِلَ وَطَلَبَتْهُ، وَأَرَدَتْهُ وَلَابُدَّ." أ.هـ.

❁ ❁ ❁ ❁

وَاللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ

obeikandl.com